# التربية الإسلامية في منظومتنا التربوية بين الواقع والمرتجى

**إعداد الأستاذ سعيد معول**
**مدير التكوين و تحسين المستوى**
**بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف**

1/ **تمهيد** : أحسب أنّي لست هنا مدعوّا لتبرير مكانة التربية الإسلامية في منظومتنا التربوية ، أو لتقدير الحيز الذي ينبغي أن تشغله في مناهج التعليم عندنا، وأحسب كذلك أني لست مدعوّا للرد على الدعوات المجانية التي كانت ترفع من هنا وهناك والداعية إلى إلغاء التربية الإسلامية وإخراجها من مناهجنا الدراسية لاتهامهم إياها بإعاقة المدرسة عن التقدم والعصرنة، ولست كذلك مطالبا بإثبات خطأ بعض المتعلمين و المتعالين الذين يرون أننا غير قادرين على بناء نظام تربوي يلائم مقتضيات العصر و توجيهاته المستقبلية إلاّ إذا انسلخنا عن ديننا و قيمنا وموروثنا الحضاري و الثقافي، اللّهم إلاّ إذا كانت المستقبلية – أو الغدية كما يسميها البعض – تعني عندهم التمكين للرذائل ومحاربة الفضائل في حين أنّ ديننا المنقول إلينا بالتواتر والذي لايتناقض في أيّ شيء مع المعقول يرى الرذائل رذائل إلى يوم القيامة و يرى الفضائل فضائل دون الخضوع لاعتبارات الزمان و المكان إلى أن يرث الله الأرض و من عليها.

2/ **الأسس والمنطلقات:** إنّ منظومة الأفكار القائمة أصلا على أساس من التصورات الخاطئة عن الإسلام والموجودة عند أهله والذين يعتقدون أن الإسلام هيأ لهم كل شيء وأن أسلافهم قد قاموا بدلهم بإعداد كل الحلول وهيّؤوها لهم وما عليهم إلاّ التزوّد بما يشاءون منها والاغتراف من معينها

الذي يعتبر في نظرهم لا يقبل النفاد ولا يحتاج إلى تجديد وتحيين لمواكبة التغيرات والمستجدات التي تقتضيها حياة البشر وهم يخوضون التجارب تلو الأخرى فوق هذه الأرض، أو التصورات المنحطة عند أولئك الذين ينظرون إلى الدين في الإسلام من نفس المنطلقات الفلسفية التي ينظر منها إلى الدين في الغرب هي التي جعلت بعض الناس في مجتمعنا يدعون بأن يعامل الإسلام في هذا الميدان كما يعامل "الدين " في الحضارة الغربية و ذلك بأن تخصص له مكانة صغيرة فوق مساحة تعامل المدرسة مع المجتمع و لا يسمح له بأن يتخطاها ويدعون إلى ترك ما عدا ذلك أو ما وراءه في تعليم الإنسان و تكوينه تكوينا علميا واجتماعيا وإنسانيا لمقررات العلوم الأخرى.

إنّ الفصل بين الدين والعلم يعكس مفهوم "الدين" في تراث الحضارة الغربية، ولكنه لا يتصور مع تعاليم الإسلام الخالدة إذ هو منحى يتناقض تماما مع تعاليم الإسلام الخالدة وآيات قرآنه البيّنات.

إنّ هذا المنحى أو هذا التوجه في تصور "الدين" في الإسلام يعتبر من المنظور الأصيل للنصوص الشرعية إنكارا للتوحيد كما بيّنه القرآن وتشتيتا لوحدة المعرفة كما رسخته النصوص الأصلية للدين، بل هو تجميد و تعطيل لدور قدرات الإنسان العقلية ووظيفتها في فهم طبيعة الخلق الذي من خلاله يكتشف التوحيد ويعمق الإيمان الذي يقوده إلى اليقين الذي ينتفي معه الشك أو الظن المشكّل للضبابية المانعة لإشراقة العقل من إرسال أشعتها لولوج عالم المعرفة بمفهومها الواسع .

إنّ هذا المنحى أو هذا التصور ينفي دور علوم الطبيعة التي سخرها الله تعالى لخدمة الإنسان ومساعدته للوصول إلى الإيمان واليقين، و ينفي دور العلوم الإنسانية والاجتماعية والنفسية في إعداد البيئة الملائمة لفطرة الإنسان لينمو نموا سليما ويتوجه بخطى ثابتة نحو الكمال البشري الذي يبتغيه الإسلام له ضمانا لسعادتها الأبدية في هذه الحياة الدنيا وفي تلك الحياة الأخرى .

نعم إنّ النظـــام التعليمي في الغرب نشأ في حضارة تفصل بين الدين و العلم وتجزىء المعرفة وتشتت السلوك، ولا تعتبر المعرفـــة طريقا للوصول إلى الإيمان الكامل، ولا تنظـــر إلى العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية كشرط من شروط كمال الإيمان، أو كمطلب من مطـــالب الدين، بل نجد هذه الحضارة قد حاربت في مراحل كثيرة من تاريخـــها العلم و أنكرت عليه اكتشافاته، وسجنت حقائقه و اضطهدت أصحابه .

لقد كانت إذن هذه الحضارة منطقية مع نفسها و منسجمة مع أسسها ومنطلقاتها الفكرية والفلسفية حين أقدمت على فصل هذا الدين الذي كان عائقا أمام تطورها وازدهارها وسببا في فصلها عن الحياة الإنسانية الكريمة، ومن ثم كان هذا الإجراء أو هذا الفصل من مقتضيات طبيعة هذا الدين ومستلزماتها. ولكن في الإسلام لا يمكن الفصل بين الدين وسائر العلوم والمعارف إذ هو يدعو أتباعه إلى توظـــيف كل ذلك – أي العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية – للوصول إلى الإيمان الذي يقوم على الحق وإلى اليقين الذي لا يشوبه شك وإلى وحدة المعرفة التي لا تقبل التفتيت والتشتيت ." قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ" **(العنكبوت:من الآية20)**. "قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" **(يونس: من الآية101)**. "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" **(الذاريات:20، 21)** ."أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" **(غافر: من الآية82)** .

قد يقول قائل أو ينتقد منتقد فيقول، مالكم تشتغلون بنقد الحضارة الغربية، بل وتتصنعون انتقادها وكأنّ ما عندنا أصبح نموذجا يجب الاقتداء به؟ وللإجابة على ذلك فإنّي أقول وبكل وضوح بأنّ منظـــومة الأفكار عندنا ونسق التفكير يحتاج إلى تجديد وتلقيح وتحيين لأنّ عالم الأفكار والمعاني والمثل يخضع لنفس السنن والقوانين التي يخضع لها عالم الأشياء الذي يقتضي الصيانة الدائمة والتجديد المستمر والتلقيح الكفيل بضمان دوام حيويته وبقائه واستمراره للوصول إلى الهدف والمبتغى.

وإنه بهذا التلقيح – الذي لا شك أنه يستوجب الاختصاص الكفء والإطـــلاع الواسع على ما عند الغير – سنتمكن من الوصول بسهولة إلى رسم طريق تؤدنا إلى إنجاز بديل تربوي مصنوع من طينتنا دون أن نمر بالأزمة الحلقية والنفسية والاجتماعية التي تنهش اليوم المجتمعات الغربية، هذا النمط التربوي البديل الذي يسير بنا في الطريق الصحيح لتحقيق إنماء إنساني حقيقي وشامل في إطـــار النصوص الثابتة في الدين وفي كنف الجوانب الايجابية من تجاربنا التراثية المختلفة والمتنوعة.

وإذا كان تراثنا – كأي تراث إنساني آخر – لا يخلو من الشوائب والعيوب والنقائص فإن غربلته وتنقيته من أجل إزالة الصدأ عنه وتجلية نصاعته وصفائه كفيلة بإعادة الحياة إلـــيه من جديد ودفعه ليتبوأ مكانة محترمة – إن لم تكن رائدة – بين سائر معروضات الشعوب والأمم، ولكن لإقامة هذه الورشة – ورشة التنقية – لا بدّ من اختيار الأرضية وتهيئتها وإقامة مختلف التوازنات عليها، المادية منها والأدبية، والشروع في تجميد وتحجيم تأثير مختلف الاختلالات التي أضحت تشكل أهم العوائق أمام الانطـــلاقة نحو الخلاص والانعتاق، وبذلك سنجنّب أنفسنا الوقوع في نفس المأزق الذي وقع فيه الغرب باختيار النمط التربوي السائد عنده حاليا، علما أننا إذا لم نحذر من ذلك فإننا سنقع في نفس المأزق الذي وقع فيه مع بقائنا في الدرك الأسفل من حيث درجة التقدم بمفهومه المادي البحت السائد الآن في الغرب، ونكون بذلك قد خسرنا خسارة مزدوجة – لا قدّر الله – لا الله عبدنا ولا الحفل حضرنا كما قيل قديما عندنا .

ومن هنا أطرح التساؤل التالي: هل يمكن لنا الاستفادة من الحضارة الغربية عبر المناطق التي تتقطر فيها المعاني والقيم والأفكار التي دافعت عنها دون المرور بمناطق تعفنها؟ أم أنه يتحتم علينا قبول كل ما فيها ويكون حالنا في ذلك

كحال حاطب الليل أو سارق الرمل من الوادي، نظـرا لصعوبة القدرة على الاختيار وعدم جدية الوقوف على ذلك؟ خاصة إذا علمنا أن هناك إرادة سيئة وراء التوجه نحو مناطق التعفن وحدها ومن ثمّ نلاحظ أننا قلما تطرق أسماعنا أزمات التربية في الغرب وقلما نحذر من خطورة ذلك علينا في الآجل و العاجل .

وإذا طرقت هذه الأزمات أسماعنا بواسطة شبكة الإعلام المختلفة فإنها لا تثير أفئدتنا ولا تحرّك ضمائرنا من أجل التصدي للضياع الذي نحن سائرون بخطـى سريعة للوقوع فيه، ضياع قد يوصلنا إلى طريق مسدود ليس له مخرج على جميع المستويات الأخلاقية والاجتماعية و الاقتصادية .

إنّ التسابق نحو تبني النماذج الغربية في التربية والركون إليها والاطمئنان سيشوه كثيرا من النواحي الإيجابية في تربيتنا، ويهدم مؤسساتنا الأصيلة مع عدم زرع ما هو أحسن منها مكانها ومن ثم لا نحصد إلاّ غرورا ولا نجد إلاّ تلوّثا اجتماعيا تربويا مدعما لتثبيته في ربوعنا بوسائط إعلامية والكترونية يصعب معها إقامة حواجز التصدي والمناعة .

ولا مراء كذلك أن الصعوبات التي تعانى منها منظـومتنا التربوية لا نحلّها باللجوء إلى جلب أفواج من الخبراء من وراء البحر، وهذا لا يعني أنني أدعو إلى إثبات عدم الاستفادة منهم، ولا الإسراف في استيراد الوسائل والتقنيات والطرائق المستحدثة هنا وهناك، ولكن ما يفكها ويحلها حقا – أو على الأقـل يسهل الطريـق إلى ذلك– هو تحديد غايات التربية عندنا بوضوح، وهذه الغايات ينبغي أن تجيب بوضوح وأن تحسم نهائيا في الإجابة عن السؤال الجوهري المطروح:

ما هو نوع الإنسان الذي نريد لمدرستنا أن تكونه ؟ و ما دور هذا الإنسان ومكانته في هذه العملية؟ و ما قيمته كعنصر في هذه المعادلة ؟ .

ويبدو لي أنّ أهم القضايا التي تنتظرنا اليوم هو تحديد التعامل مع التكنولوجيات الغربية وحاجتنا إليها والعمل على الحد من استيرادها جاهزة بغرض الوصول – على الأقل- إلى الحد على التركيز على المظاهر الخارجية – البراقة – للتنمية وما يرافق ذلك من التنافس على استهلاك السلع الكمالية دون الشروع في المسيرة نحو مضمون حقيقي للتنمية تنجز بفضله مشروعات حيوية تسهم فيها كل الفئات الاجتماعية الفاعلة لإنتاج تكنولوجية تكون وليدة حاجة المجتمع و تفكيره وإنتاج حاجاته المادية يدرك أهميتها وقيمتها، ويدفعه ذلك إلى حسن استعمالها واستغلالها والمحافظة عليها ويحاسب نفسه في استعمالها بقياس مردودها ، تفاديا للوقوع في النشاطات الطفيلية – كما هو سائد الآن – والشطحات التي لا طائل من ورائها، أو إلى النتيجة الخطيرة المتمثلة في الركون إلى السلبية والجمود مع فقدان القدرة على العقل والإبداع والمبادرة ويرسخ نهائيا مظاهر التبعية للغير التي لا يمكن مع بقائها الخروج من دائرة التخلف إلى دائرة الفعل نحو التحرر والانعتاق.

إنّ معالجة مختلف الاختلالات المادية والأدبية التي وقع فيها مجتمعنا بسبب المنحى الذي سلكته بلادنا خلال العقدين الماضيين في التنمية تعتبر شرطا ضروريا من أجل تهيئة الأرضية للانطلاقة نحو استعادة مختلف التوازنات الكفيلة بضمان تحقيق حياة متوازنة اقتصاديا متكافلة اجتماعيا متماسكة أخلاقيا وتربويا، ذلك أن مدرستنا اليوم تعمل في محيط معقد إن لم أقل في محيط ملوث أوجدته توجهات في التنمية لم تخضع لدراسة عميقة مسؤولة على النتائج المترتبة عنها، ولإزالة هذا التلوث الذي صنعه الترف والمترفون المتبجحون بمظاهر النعمة المزيفة لا بد من العودة إلى الينابيع الصافية التي كان يرتوي منها مجتمعنا، مع شرط وضرورة إزالة الطحالب التي تعشعشت فيها بفعل أيام الهجر والجفاء وبفعل سنين، الغفلة والرقدة والقعدة والاعتماد على زاد الغير و ينابيعه، والتي أصبح بفضل تبعيتنا له في ذلك يساومنا على كل شيء، وحتى على الأشياء التي لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونها .

وتأتي التربية الإسلامية الصحيحة ضمن مناهجنا الدراسية على رأس المقررات التي يعتمد عليها في تهيئة التلميذ الجزائري المؤهل لاستعادة مختلف التوازنات المهذبة لمختلف الاختلالات والموجدة للبيئة النافية الخالية من الشوائب والملائمة للعمل القائم على أساس التنافس الشريف بين أفراد المجتمع للفوز بمراتب الشرف في تحقيق ما يرفع من شأن وطننا و يعيد عزته و مجده .

أعلم أن هناك من أبناء جلدتي من يقابل رأيي برأي آخر يبعث على الملل من كثرة ما سمعناه، وهو الحديث عن وسائل التعليم المختلفة هذه الوسائل التي لا أجهل بأنها أصبحت اليوم في البلدان المتقدمة متطورة تطورا مذهلا إذ أنها بعدما كانت عبارة عن الرسوم والخرائط والسبورات وما أشبه ذلك زيادة عن الكتاب احتلت اليوم الوسائل السمعية البصرية كالصور والأفلام والمسجلات والحاسبات الإلكترونية ومختبرات اللغات والتعليم المبرمج والتعليم السيبرناتي وغيرها مكانة هائلة في التعليم عند الغرب و أصبح الآن بفضلها الحديث عن مفهوم تكنولوجية التعليم بدلا من الحديث الذي كان سائدا في السابق والمتمثل في الحديث عن وسائل التعليم .

لا أجادل أبدا في كون هذه التكنولوجية التي انبعثت عن ثورة التواصل سيكون لها أثر إيجابي عظيم – إذا ما أحسنا استعمالها – على مردودنا التربوي، ويمكن أن يكون ذلك مانحا قوة أكبر للتربية عندنا، بشرط أن لا تنساق وراء هذا الصخب أو هذه الدعاية الطويلة والعريضة لوسائل التعليم المتطورة من أجل توليد قناعة في نفوسنا للمبالغة في شراء هذه المستحدثات بدعوى تجديد الوسائل والطرائق وغيرها دون الأخذ بعين الاعتبار طبيعة التربية التي نقدمها لأبنائنا ودون التفكير في محتوياتها وغاياتها .

وبعبارة أوضح وأدق وأليق نقول: هل يمكننا أن نتحدث عن الكيفية التي نتعلم بها دون أن نتفق على ماذا نتعلم؟ وهل الاتفاق على ماذا نتعلم يغنينا

عن طرح السؤال الجوهري الهام لماذا نتعلم؟. السكوت عن الإجابة الصريحة والمرتبة عن هذه الأسئلة سيعمق من أزمتنا وسيعقد مشكلتنا وسيقودنا إلى الطريق المسدود الذي لا تنفع معه الحيل والترقيعات، كما وقع لنا في معركة التنمية التي كنا نتوهم فيها بأن استيرادنا وامتلاكنا لمختلف منتوجات الحضارة كالسيارات والجرارات والطـــائرات ومختلف الآلات سيخرجنا من دائرة التخلف، ولكننا وجدنا أنفسنا – مع الأسف كما يقول المرحوم مالك بن نبي – مع مرور الوقت ودوران الزمن ندخل في دائرة مغلقة لا حيلة لنا للخروج منها، إذ قادنا هذا السلوك و هذا المنطق لنقف على استحالتين يصعب معها مواصلة السير، استحالة منطقية تتمثل في عدم القدرة على بناء حضارة باستعمال الأشياء التي أنتجتها حضارة أخرى لأن المنطق يقول إذا كانت الأسباب تفضي إلى نتائجها فإن هذه الأخيرة لا يمكن أن تخلق أسبابها، لأن الإمكان المالي لأي مجتمع مهما كان عظـــيما لا يمكن هذا المجتمع من القدرة على شراء كل ما ينتجه مجتمع آخر وذلك كله مخالف لسنن الله في خلقه وللسنن الكونية في الحضارة والاجتماع .

إنّ تركيز عملية الإصلاح التربوي التي شرعنا في القيام بها على وسائل التعليم تارة وعلى طرائقه وأساليبه ومقارباته تارة أخرى، و توجيه أصابع الاتهام إلى بعض المقررات التي تتشكل منها مناهجنا الهدف منها تضليل الرأي العام وصرف نظـــره عن حقيقة المشكلات التربوية التي هي في الحقيقة والواقع بنات لواقع اجتماعي مرير وواقع اقتصادي مختل وواقع سياسي رتيب.

إن الإصلاح التربوي في تجديده و تفعيله لا يمكن أن نضمن نجاحه إلاّ إذا دخل في سياق إصلاح اجتماعي واقتصادي شامل.

إنّ المدرسة الجزائرية ينبغي أن تكون مكانا للإنماء الفردي والجماعي وليست مكانا للتهجير الثقافي و التمزيق الذاتي والتهميش الاجتماعي، ومن ثم نستطيع أن نقول بأنّ التمسك بأسطورة نقل تجارب الغير سواء في المحتويات والوسائل والطرائق دون تحميص، ودون تجديد استراتيجية التعامل معها ما هي إلاّ وسيلة لتضليل الأجيال وتعميق مأساتها .

إنّ المجتمع الجزائري المسلم يستطيع أن يوجد لنفسه بديلا تربويا صافيا من طينته ووطنيته تقيه من الوقوع في الأزمة التي تنهش الغرب حاليا ولا بّد في هذا المجال من العودة لنهتدي إلى التمسك بهويتنا تمسكا معتدلا واعيا، مسؤولا يمكننا من التعامل مع الغير تعاملا صحيحا دون مركب نقص أو مركب استعلاء ودون الوقوع تحت تأثير الغرور أو عبادة الذات .

فهل يستحيل عقلا أن نكوّن لأنفسنا منظومة للتربية و التعليم تجمع خصائصها بين أفضل ما في التراث الوطني وبين أفضل ما توصلت إليه الخبرة العالمية بما في ذلك خبرة بلدان الغرب جميعها و بلدان الشرق كلها.

إن الأصلاء والخلصاء من مجتمعنا لا يرون أن كل ما يستورد رديء لمجرد أنه مستورد، ولا يرون كذلك أنّ كل شيء موجود في تراثنا حسن لمجرد أنه من تراثنا كلا ؟ ثم كلا ؟ كم في تراثنا من إيجابيات ولكن كذلك كم فيه من حماقات ومن ثم فإنّ الاختيار من هنا أو هناك يحدده المعيار المعتمد في تحديد نوع المجتمع الذي نسعى إلى بنائه ونتطلع إلى العيش في كنفه و نوع التربية التي تلائمه، وعلى هذا الأساس ينبغي أن يكون الشغل الشاغل لنا جميعا وبإخلاص هو كيف نتمكن من إنشاء نظام تربوي يسير بناء في معارج التقدم العلمي والتطور التكنولوجي وفي معارج التقدم الديمقراطي الصحيح وفي معارج الكمال الإنساني الذي نبتغيه لأبنائنا والذي لا يمكن بلوغه إلاّ عن طريق تعزيز الوعي بالذات والاعتزاز بأمجاد الوطن وأمجاده واستلهام العبر من الماضي لشق الطريق نحو المستقبل. وستبقى التربية الإسلامية الصحيحة والمكانة التي ستحتلها في مناهجنا التربوية أفضل وسيلة للتصدي للغزو الثقافي الأجنبي مع القدرة على الاحتفاظ بإمكانية تأمين سبل الاستفادة من تجارب الغير في كل ميادين الحياة المختلفة، ذلك لأن الإسلام بذاته كدين سماوي يبقى دوما قادرا على استيعاب كل ما هو إيجابي من تراث الانسانية في كل زمان ومكان بل ويأمر بذلك دوما.

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" **(الحجرات:13)** .

ولا يقذفن في روعك – أخي الكريم – أنني أدعو إلى ذلك تعصّبا أو تحت تأثير عاطفة غير خاضعة لسلطان العقل ولكن أدعو ذلك بقناعة تامة مع وضع محترزات لا بدّ منها، هذه المحترزات التي يجب أن يتضمنها الإطار المرجعي الوطني الذي نستمد منه مادة التربية الإسلامية .

**3/ الإطـــار المرجعي لمنهاج التربية الإسلامية في المنظـــومة التربوية :**

ولما كان منهاج التربية الإسلامية أو العـــلوم الإسلامية تحويلا لما أنتجه المسلمون عبر مختلف الحقب التاريخية وعبر مختلف العصور والأمصار وفي مختلف المواد والنشاطـــات والتخصصات إلى مادة تعليمية تستهدف تعلـــيم تلميذ جزائري من أجل إعـــداده للحياة ولممارسة المواطـــنة بمعناها الإيجابي الصحيح، ينبغي أن نضع في الحسبان بأنّ هذا التلميذ له مكتسبات قبلية يتمتع بها وملامح يتّصف بها أوجدتها التنشـــئة الدينية والاجتماعية التي لاتزال مستمرة في مجتمعنا والمتسمة بالطابع العريق للحضارة الإسلامية بكل مظـــاهرها الثقافية والاجتماعية المتنوعة، وبناء على ذلك فإنّ بناء منهاج التربية الإسلامية لا بدّ من أن ينطلق من خصائص تراث المسلمين العظـــيم مع التمييز بين ما هو ثابت، وما هو متغيّر وبين ماهو من الشريعة ورودا وثبوتا ودلالة، وبين ما هو من اجتهاد المسلمين عبر العصور والأزمنة وفي كل البقاع و الأصقاع في محاولاتهم لفهم كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله (ص) وفي توخيهم للهداية التي جاء يدعو إليها .

وهنا لا بدّ من الحسم والفصل للتفريـــق بين الإســـلام كشريعة خالـــدة صالحة لكل زمان ومكان وبين تراث المسلمين الذي شكلته مختلف تجاربهم في سائر الميادين وفي محاولاتهم لفقه توجيهات دينهم وفق ما تقتضيه بيئاتهم المتنوعة والمتباينة وعصورهم المتعاقبة.

ولا بدّ من غربلة هذا التراث وتمحيصه من أجل التمييز بين ما هو من الشريعة المنصوص عليه صراحة من حيث الدلالة والورود في القرآن والسنة، وبين فقه الرجال لهذه النصوص وتفسيرهم لها، إذ أن الفقه الذي هو من استنباط المجتهد قد يعالج مشكلات المجتمع في زمن أو مكان بعلاج يمكن ألاّ يصلح لمعالجة مشكلات زمان أو مكان آخر .

فأحكام الشريعة صواب لا خطأ فيها بينما تطبيق الناس لها وتجاربهم معها وفهمهم إياها، قد تكون صائبة وقد تكون مصيبة .

ولا بدّ من أن تضع هذه المناهج كمقاصد أساسية لها الربط بين العلم والدين وأن تعمل على إشعار التلميذ بقيمة ما أودع الله فيه من قدرات عقلية ودور هذه القدرات الحاسم في حياته إذا ما تمكن من توظيفها توظيفا سليما في فهم نفسه والطبيعة التي تحيط به وفي فقه سنن الله في كونه، والتي لا تتبدل ولا تتغير، ويبقى أعظم فقه يمكن أن يصل إليه عقل الإنسان هو فهم هذه السنن وإدراك بلاغ القرآن حولها، هذا القرآن الذي يبقى على كل حال علاجا إلهيا أزليا لمستحدثات البشر ومشكلاتهم وما استحدثه البشر قديما هو الذي يستحدثونه اليوم وسيستحدثونه مستقبلا، ولو اختلفت أشكال هذه المستحدثات فإن جواهرها واحدة.

وبناء على كل ما تقدم ينبغي على القائمين على إعداد مناهج التربية الإسلامية أن يحرصوا على أن لا تكون مقررات هذه المادة انعكاسا آليا لثنائية " يجوز – ولا يجوز" بالمفهوم الضيق لكلمة الفتوى كما هو معمول به عادة، لأن الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يخوض فيها إلاّ من هم أهل لذلك، وينبغي أن يتعدى ذلك اجتهادات الأفراد مهما كانوا إلى عمل الجماعات المتخصصة والهيئات العلمية والمجامع الفقهية التي يتعين عليها توجيه الفتوى نحو مقاصد الإسلام الأساسية وأهدافه البعيدة، ويأتي على رأس هذه المقاصد تنمية الضمير الخلقي لدى كل تلميذ ينأى به عن الوقوع في الموبقات التي تزري

بكرامة الإنسان، وتبعده عن دائرة الآفات والمحرمات بتوجيه من ضميره الخير ومن قلبه السليم ونفسه الزكية واضعا نصب أعينه دائما قول النبي الكريم " **البر حسن الخلق والإثم ما حاك صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**".(رواه مسلم)

"أ"ـ إنّ الإسلام الذي كرّم الإنسان ووضع ثقته فيه و في قدراته دعانا إلى وضع الإنسان في نظـــام معرفي وخلقي يضمن له أقصى درجة من النمو العقلي والنمو الخلقي والوجداني، وتلتقي تعاليمه الخالدة في هذا المجال مع مقاصد التربية الحديثة في أسمى معانيها وأنبل أهدافها وأبعد مراميها والتي ما هي في نهاية المطاف إلاّ إشعار الإنسان بقيمة ما فيه من قدرات عقلية و دعوته إلى ضرورة العمل على توظـــيفها في حياته إلى أقصى درجة ممكنة ليكتشف نفسه وسنن الله في الحضارة والاجتماع ويكتشف محيطـــه وعالم الطبيعة " عالم الشهادة " ليقود الإنسان نفسه للوقوف على حقائق الخلق وعلى الإيمان بالخالق ومن ثم يتوصل إلى بناء منظـــومة القيم الخلقية التي تتركز على عالمية الإنسان القابـــلة للتطور الدائم والتحسن المستمر ليفوز الإنسان في النهاية بإقامة الفضيلة وعالم تسوده العدالـــة والحرية.

" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ".

"ب"ـ ومن خصائص المجتمع الجزائري المسلم وقيمه ومقوماته، وخاصة منها الطابع الوطني الذي يتجلى بوضوح في مختلف المواثيق ويتجسد بحق في مختلف التضحيات الجسام التي قدمها شعبنا في سبيل حريته وكرامته وفي سبيل رد العدوان الذي وقع عليه عبر مراحل التاريخ المتعاقبة.

إنّ التربية الإسلامية ينبغي أن تعمل على صون المكونات الأساسية للشخصية الجزائرية والهوية الوطنية، وتدفع إلى التمسك بالوطن والاعتزاز بماضيه وبكل أمجاده والتغني بأنجاده، وإلى التعلق الشديد والمتبصر بتـــراث الجزائر الثـــقافي والحضاري والعمل المستمر على رعايته وتحسينه وتجويده.

إنّ التربية الإسلامية التي ننشدها هي التي تدفعنا إلى المصالحة مع الذات ومع التاريخ ومع كل عناصر الهوية الوطنية التي كانت على الدوام الضامنة لوحدة آمالنا وآلامنا، وهي التي تمكننا من رفض تشتيت وحدتنا باسم الإسلام ، لأن الشعب الجزائري مسلم، أو لم يسجل جميع المؤرخين في مشارق الأرض ومغاربها بأنه من أسرع شعوب الأرض إلى اعتناق عقيدة التوحيد ؟

وتمكننا من رفض تمزيقنا باسم العروبة لأن الشرفاء والخلصاء والعقلاء من هذا الوطن ليس لهم أي مشكل مع هذا الانتماء العظـيم الذي أوجدته السيرورة التاريخية لمجتمعنا على غرار جميع أمم الأرض وشعوبها، وتمكننا من رفض تمزيق صفوفنا باسم الأمازيغية لأن الأصلاء والشرفاء من هذا الوطن ليس لهم أية عقدة مع هذا الأصل الكريم الذي صهرته التربية الإسلامية عبر العصور مع بقية عناصر الهوية الوطنية في بوتقة الوحدة والتوحيد والإيمان وعلمتنا على أننا خلقنا جميعا بحكم الهوى إخوة فتبّت يدا كلّ من فرّق وشتّت ومزّق، وتمكننا من رفض تمزيق وحدتنا باسم الأحزاب السياسية لأننا جميعا حزب واحد ضد الجهل وضد المرض وضد الجوع وكل مظـاهر التخلف التي تزري بقيمة الإنسان، وتمكننا من رفض تشتيتنا باسم الديمقراطية لأن أرجاء وطننا العزيز شاسعة واسعة تتسع لكل هذه الآراء ولكل هذه المشارب والقناعات ولا تضيق بها .

إنّ التربية الإسلامية التي نريدها لأبنائنا هي التي تعمق إيمانهم بخالقهم، وتعمق عشقهم لأمجاد وطنهم وأنجاده، وتنمى محبتهم له واعتزازهم به، وليبقى عشقهم قائما على الدوام ومتعلقا بكل حبة رمل من رمال صحاريها وفيافيها، وكل حبة تمر من تمور نخيلها وواحاتها، وكل حبة قمح من قموح سهولها وهضابها وكل حبة زيتون من زيتون جبالها ووهادها، وليحمدوا الله قبل ذلك وبعد ذلك على نعمته التي أكرمهم بها، إذ بالشكر تدوم النعم، وليرددوا دائما وأبدا بحناجرهم وألحانهم الزيتون لنا، والقمح لنا، والتمر لنا والرمل لنا والمجد لنا والجـزائر لنا.

إنّ مجتمعنا لم يعرف منذ أن اعتنق الإسلام خلافات دينية أو فقهية أو مذهبية أو عقيدية، ومن ثم فإنّ التربية الإسلامية التي نريدها لأولادنا هي التي تمكنهم من المحافظة على الوحدة الدينية السائدة في المجتمع من حيث أصولها وفروعها، وهي التي تدفع إلى ترسيخ التوافق الاجتماعي والأخلاقي والالتزام بالسلوك الاجتماعي الطيب بين سائر أفراد المجتمع، وتدفع إلى الاعتزاز بثوابت الأمة الجزائرية وإلى تثبيت محبة المواطنين لوطنهم وذلك بدعوتهم إلى الحرص الدائم على صون أمجاده وعزّته وكرامته عن طريق الإيمان الراسخ الذي يدفع إلى العمل والإبداع ويبعد عن الخمول والكسل والتواكل.

إنّ التربية الإسلامية التي ننشدها لأبنائنا هي التي تسعى إلى تنمية قدرة المواطنين على مواجهة الحياة الواقعية وظروفها الاجتماعية والاقتصادية أمام التكتلات الأجنبية التي تتقوى يوما بعد يوم، وأمام الحالة العالمية العامة والعلاقات الدولية المعقدة والتي لم يضطرب حبلها يوما اضطرابه في هذه الأيام.

"ج" ومن خصائص هذا الوضع العالمي الراهن الداعي إلى الالتزام الصارم بالعمل على ترقية حقوق الإنسان من حيث هو إنسان، وبالعمل على حماية الطبيعة والبيئة والمحافظة على الصحة وعلى ترقية ثقافة السلم والمحبة بين الناس جميعا على اختلاف ألوانهم و أجناسهم ودياناتهم.

إنّ التربية الإسلامية التي ننشدها لأبنائنا هي المتصفة بالطابع المتفتح (وليس المنفتح، وشتان بين التفتح والانفتاح) والمتسامح (الذي لا يعني السماح في القيم والمبادئ) الذي يعلمنا قبول الاختلاف، وقبول الآخر بواسطة الحوار ومقابلة الأفكار، وحينما ندعو إلى ذلك ليس معناه أننا نحرص على تطبيق ما تفرضه الظروف الدولية الراهنة وإنما ذلك كان من صميم ديننا الذي علمنا بأن الاختلاف والتنوع من طبيعة البشر التي جبلوا عليها " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"(**الحجرات:13**)، والذي علمنا أن لا واسطة بين الإنسان وخالقه، فلا يملك

أحد أن يجبر أحدا على عقيدة، ولا يملك أحد أن يغفر ذنبا أو يمنح ثوابا لأن ذلك كله مما اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون من اختصاصه ومن مستأثراته ومن سوء الأدب مع الله أن يتدخل الإنسان فيما استأثر الله به، ومن ثم فإن كل زيادة أو مزايدة في هذا المجال تعتبر تحريفا للدين وتضليلا للناس يتحمل صاحبه تبعات ذلك في الدنيا وفي الآخرة, وقد حذرنا القرآن من الوقوع في ذلك الذي وقع فيه أهل "الأديان" السابقة الذين كانوا يتخذون أحبارهم و رهبانهم أربابا لهم من دون الله عز وجل "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ" **(التوبة: من الآية31)** واستغرب الصحابة بعد سماعهم هذه الآية فقالوا: "**يا رسول الله إنهم لا يعبدونهم**" فقال:"**كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه**". (رواه الترميذي والبيهقي).

ومن ثم ينكر الإسلام صراحة أن تحل الألوهية في أيّ نظـــام بشري أو مؤسسة إنسانية، ألوهية تمنح لهذا النظـــام أو هذه المؤسسة سلطانا على الإنسان وحياته، فالإسلام علمنا أن المؤسسات ومهما كانت هذه المؤسسات ، سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية التي يحتاج لها البشر لتنظـــيم حياتهم وتسيير شؤونهم تخضع لبصائر البشر أنفسهم واحتياجاتهم وفق ما تسعفهم في ذلك اجتهاداتهم في ترجمة أصول الإسلام العامة ومبادئه التي تتمحور حول بناء الأنظـــمة والمؤسسات التي تنظـــم علاقات الناس ببعضهم وتحدد الأدوار والوظـــائف والتخصصات، وإذا كان الإسلام في نصوصه الأصلية (القرآن والسنة) قد بين أوصافـــها ومقاييسها وأشار إلى المعايير التي ينظـــر بها إليها فإن أشكالها وألوانها تركها تخضع لاجتهادات الناس حسب تباين تجاربهم و اختلاف أمصارهم و تعاقب أعصارهم " يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى"**(ص: من الآية26)**. "وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ **(آل عمران: من الآية 159)**" "وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ" **(الشورى: من الآية38)** "وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ" **(النساء: من الآية58)** .

إنّ الإسلام يبين ويقرر أن حقيقة الإنسان لا تبينها الفروق الظاهرة بين البشر والمتمثلة خاصة في العرق واللون واللغة أو الجنس، وإنما هذه الفروق ما نظر إليها إلا لكونها آية من آيات الله في خلقه"وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ" **(الروم: من الآية22)**"، ولكن حقيقة الإنسان من المنظور القرآني توضحه الصفات التي جبل عليها الإنسان كإنسان والتي فصلتها آياته البينات ومنها خاصة أنه (أي الإنسان) قد سواه الله ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه الأسماء كلها كما علمه البيان ومكنه من توارث العلم بواسطة القراءة والكتابة وفطره على التوحيد وكلفه بعمارة الأرض وجعله خليفة له فوقها، وما عدا ذلك من الصفات والأوصاف هي عرضية لا يليق دينيا أن يكون لها شأن أو دور أو تأثير في دين الإنسان و لا في تربيته وقيمته و لا في معيار التمييز بين إنسان وآخر "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" **(البقرة:30، 31)** .

وبهذا التمييز الواضح والجلي بين الصفات العرضية (اللون والجنس واللسان والعرق) والصفات التي تبين حقيقة الإنسان وتدل عليها يؤكد الإسلام عالمية الإنسان ويحكم بأن أيّ نظام آخر أو مؤسسة أو أي دين – مهما كان هذا الدين الذي يجعل من هذه الصفات العرضية أساسا ومقياسا في فصل البشر عن بعضهم البعض كان هذا النظام أو هذه المؤسسة أو هذا الدين دينا باطلا ينكر حقيقة الإنسان و يمسخ عالمية هذه الحقيقة كما تفعل بعض الأديان المنغلقة التي تقوم على الأسس والأفكار المتناقضة مع هذه العالمية أو الأفكار التي تزري بقيمة الإنسان كإنسان أو تنقص من منزلة المسؤولية التي وضعه الله فيها. "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" **(المائدة:18)**.

تلك إذن بعض المعاني والمفاهيم والمثل التي اقترحها لتكون محل اهتمام وتركيز عند الشروع في تصور منهاج التربية الإسلامية أو العلوم الإسلامية وتسطير أهدافها وتحديد محتوياتها .

هذا إن وفقت فيما ذهبت إليه فله الحمد على ما وفق، وإن تجافني التوفيق فلست أول من بحث فأخطأ وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب .